

اقتاي أمير الممالك البحرية

سالم يونس محمد

معهد إعداد المعلمين / الموصل

القبول

الاستلام

٢٠٠٩ / ٠٢ / ١٦

٢٠٠٨ / ١١ / ٠٩

Introduction

In the middle of the conflicts that challenged Ayobi state and their failure to continue the historical role that resulted in their state to confront the crusaders of ter they preferred to conclude a truce with them to devote themselves to their internal disputes the events and facts suggested an emergence of a new power that had effective political and military properties represented by the knights of Mamalik. It was a newly invented power whose emergence led to settle many issues that challenged the Ayobi state starting from their act of disposing the just King II and crowning Najm Al-deen Ayob the good King, and conspiring to kill him later, and to fairly control the political and military arena over the Ayobi state during that period of time. This power had proved its ability to face the challenges at that time represented by the 7th Crusade as well as repelling the danger off Egypt and Islamic Arab world. Consequently, this added an extra power to the Mamalik to overthrow Turanshah-the last sultan of the Ayobi state, and to end the Ayobi authority in Egypt to from anew state whose existence was based on a well-trained military class of its chivalry and good readiness. The personnel of this class had usually been brought from the slave-selling market as they were young to subject to on educational cultural process through which they received lessons in Arabic language as well as Islamic education. Then they subjected to a clear-cut systematic training through some stages they usually could not pass without strict requirements inside classes. This lift its impact on the integrity of this class as well as on the strength of its violence and oppression and its lacking for mercy and humanity through its moral and treatment. The naval Mamalik division comprised one of the pillarson which the Mamalik state had stood, It was established by One of the most prominent sultans of the Ayobi state, Najm Al-Deen Ayob-the good king in (638 - 647 A.H /1240 -1249 .A D) in Egypt. It settled in Al-Roadah for tress the chose, and it became the military pillar for the strength of his state.

Thereafter, its star started to shine and its in flounce extended and nothing could stand against its ambition that overthrew. Turanshah the last Ayobi kings, to end the Ayobi state and start the naval Mamaliki state in (648 A.H / 1250 A .D) of my over view of the historical went, I see that the history used to shed light upon kings, presidents and some religious men, whereas many figures had been left among the fohds of the pages of books, albeit they were incentive and effective power in the event of that period of time. One of these Figures I tackled in my simple research was prince Aqtai—one of the staffs of the naval division who had an effective role in the emergence of the naval state of Mamalik. His star had shone to become the first man of Egypt and the operator of many events. He managed to creat a different reality characterized by bloody conflicts, successive actions and the ambition against which nothing could ever stand. At last, he ended up head thrown owner its walls rolled on the streads of Cairo, with his fellows unaware of themselves to end up in the middle of the desert and Al-sham lands.

المقدمة

في خضم الصراعات التي واجهت الدولة الأيوبية، وفشلهم في استكمال الدور التاريخي الذي افرز دولتهم في التصدي للصليبيين بعد ان اثروا سياسة المهادنة مع الصليبيين حتى يتفرغوا لمنازعتهم الداخلية، حيث كانت الأحداث والوقائع توحى بظهور قوة جديدة ذات مميزات سياسية وعسكرية مؤثرة، هي فرسان المماليك، وهي قوة فتية أدت بروزها إلى حسم كثير من القضايا التي واجهت الدولة الأيوبية ابتدأت بعزلهم للملك العادل الثاني وتنصيب الملك الصالح نجم الدين أيوب، ثم التأمر على قتله، والتحكم نوعاً ما بالساحة السياسية والعسكرية خلال تلك الحقبة الزمنية على ساحة الدولة الأيوبية حيث أثبتت قدرتها على مواجهة التحديات آنذاك، والتي تمثلت بالجملة الصليبية السابعة ودرء الخطر عن مصر والعالم العربي الإسلامي مما أعطى للمماليك قوة إضافية للإطاحة بآخر سلاطين الدولة الأيوبية الملك تورانشاه وإنهاء السلطة الأيوبية في مصر مكونة دولة فتية استندت في وجودها إلى طبقة عسكرية متدربة تدريباً ممتازاً، عرفت بفروسياتها وحسن استمدادها وكان يؤتى بأفرادها من سواقة النخاسة وهم صغار يخضعون إلى عملية تربوية تنقيفية، يتلقوا من خلالها دروساً في تعلم اللغة العربية والإسلامية بعدها يخضعون لتدريب منظم محدد المعالم يتم عبر مراحل لا يتجاوزونها عادة إلا عبر مستلزمات صارمة داخل الأطباق، مما ترك أثره في تماسك هذه الطبقة وقوة عنفها وبطشها وفقدانها للرحمة والإنسانية في أخلاقيتها وتعاملها.

وتشكل الفرقة المملوكية البحرية إحدى الدعائم التي قامت عليها الدولة المملوكية والتي كان قد انشأها ابرز سلاطين الدولة الأيوبية الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٨ - ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م) في مصر، واسكنها في قلعة الروضة، وأصبحت الدعامة العسكرية لقوة دولته، وبدأ نجمها يسطع ونفوذها يكبر ولا يقف شيء أمام طموحها الذي أطاح بآخر ملوك

الايوبيين تورانشاه مسجلة نهاية الدولة الايوبية وبداية الدولة المملوكية البحرية عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م.

من خلال استقراي للأحداث التاريخية كان دائما تسلط الأضواء على الملوك والرؤساء وبعض رجالات الدين الكبار، أما شخصيات كثيرة في غايت طيات صفحات الكتب رغم انها كانت محركا وذات قوة فعالة في أحداث تلك الحقبة الزمنية ومن هذه الشخصيات التي تناولها في بحثي المتواضع الأمير اقطاي، احد أركان الفرقة البحرية الذي كان له دور فعال في ولادة دولة المماليك البحرية الذي سطع نجمة وأصبح رجل مصر الأول، والمسير لكثير من الأحداث، ويخلق واقعاً مختلفاً تميز بالصراعات الدامية والأحداث المتعاقبة والطموح الذي لا يقف أمامه أي حاجز، ولينتهي به المطاف في مؤامرة بقلعة الجبل، وليتلقى برأسه من فوق أسوارها، ليتدحرج في شوارع القاهرة، في غفلة من أصحاب حيث ينتهي بهم المطاف في جوف الصحراء وارض بلاد الشام.

اقطاي :-

هو اقطاي بن عبد الله الجمدار^(١)، الأمير فارس الدين الصالحي النجمي التركي^(٢)، كان مملوك التركي إبراهيم المعروف بالحبيلي اشتراه في دمشق من سوق النحاسة ثم رياه وباعه بألف دينار للملك الصالح نجم الدين أيوب^(٣)، عاش اقطاي مثل غيره من المماليك داخل الأطباق فترة زمنية ليست بقصيرة، تلقى خلالها دروساً في تعلم اللغة العربية والدين الإسلامي في صباه، ثم لما اشتدت ساعده بدأ بتعلم فنون القتال حتى أتقنها، تخرج بعدها من الأطباق مثل غيره من المماليك عصره ليكون تحت خدمة سيده الملك الصالح نجم الدين أيوب وبدأ يتسلق المناصب حتى وصل إلى مرتبة أمير، وسيرة حياته غامضة أثناء صباه وتخرجه، إلا ان الأضواء خلال تلك الحقبة لا تسلط إلا على الملوك وأصحاب الشأن.

المملوك هو العبد الذي يباع ويشترى وجمعها ممالك، واقتصرت هذه التسمية على فئة من الرقيق البيض الذين كان يجلبهم التجار من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق واسيا الصغرى وتركستان وبلاد ما وراء النهر، وكان منهم الأتراك الذي اقطاي احدهم واشراكسة والروم وغيرهم، أما إطلاق تسميتهم بالفرقة البحرية المملوكية الذين كان اقطاي أميرهم وقائدهم فقد أورد

(١) الجمدار، لفظ مركب من لفظتين الجاما معناها الثياب، ودار معناها صاحب الثياب أي المشرف على خزائن الملابس السلطانية للاستزادة، الفلقشندي، ابو العباس احمد بن علي، صبح الاعشى في صناعة الانشاء، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة، ١٩٦٣، ج ٥ / ٤٣٥.

(٢) ابن تغري بردي، جمال الدين ابو المحاسن يوسف، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد امين، القاهرة ١٩٨٤، ٥٠٣-٥٠٢/٣.

(٣) الحبيلي تاجر رقيق كان محبوبا عند الملك الناصر يوسف الثاني صاحب حلب ودمشق، ارسل الامير اقطاي طلبا بإطلاق سراحه وارساله إلى مصر حيث أكرمه وانعم عليه، المصدر نفسه، ٥٠٣.

المؤرخون روايات عدة. حيث ذكر ابن تغري^(١) بردي ان هذه التسمية تعود إلى عهد الفاطميين إذ كانت لهم طائفة من الجند تعرف بالغز البحرية.

اما الخرجي^(٢) فيذكر ان سلطان اليمين نور الدين عمرو بن رسول (ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) كان معاصراً للملك الصالح نجم الدين أيوب في مصر كان نور الدين قد اسكث من شراء المماليك البحرية حتى بلغت ذروتهم ألف فارس.

كما يذكر ابن تغري بردي^(٣) فيورد ان هذه التسمية رافقت الدولة الأيوبية إذ ان الملك العادل الأول (٥٩٨ - ٦١٥هـ / ١٢٠٢ - ١٢١٨م) كانت له فرقة باسم البحرية العادلة، فضلاً عن ان الملك الكامل (٦١٥ - ٦٣٦هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٨م) كانت له طائفة من الأجناد يطلق عليها باسم البحرية^(٤)، أما العبادي^(٥) وغوانمة^(٦) فقد ذهبوا إلى ان التسمية جاءت من ان المماليك البحرية قدموا من وراء البحار، ولكن أكثر المصادر والمراجع ترجع ان هذه التسمية تعود للملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ - ٦٤٧هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤٩م) حيث أطلق على فرقة مماليكه التاي أنشأها باسم المماليك البحرية نسبة إلى بحر النيل الذي كان يحيط بجزيرة الروضة في القاهرة التي اسكن فيها فرقته البحرية^(٧).

ويبدو ان التسمية الأخيرة هي الأرجح، وأما ما ذكرته بعض المصادر او المراجع فقد جاءت هامشية ولم يكن لها دور في الأحداث السياسية التي عاصرتها بقدر ما لعبته الفرقة البحرية في عهد سلطنة الملك صالح نجم الدين أيوب في تغير كثير من الأحداث التاريخية ان كان في العهد الايوبي ومن ثم انشأ دولة باسمهم (المماليك البحرية) عام (٦٤٨هـ / ١٢٤٩م). كان للمماليك دور كبير في الأحداث التي عاصرت الدولة الأيوبية عن أعقاب وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي عام (٥٨٩هـ - ١١٩٣م) حيث أسهمت في الصراعات التي حدثت بين أحفاد صلاح الدين^(٨) اذ حسمت كثير من الصراعات كالصراعات الذي نشب بين الملك العادل الثاني وأخيه الملك صالح نجم الدين أيوب، بخلعهم للملك العادل الثاني وتنصيب الملك الصالح نجم الدين أيوب عام (٦٣٨هـ - ١٢٤٠م)^(٩).

(١) ابن تغري بردي، جمال الدين ابو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مطابع كوستا توماس، (القاهرة - د.ت)، ٩٠/٤.

(٢) الخرجي، علي بن حسن، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية القاهرة - ١٣٢٩هـ / ١٩١١، ٢٨/١.

(٣) نجوم، ٩٠/٤.

(٤) المصدر نفسه، والصفحة.

(٥) العبادي، احمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام دار النهضة (بيروت - ١٩٦٩)، ٩٩.

(٦) غوانمة، يوسف درويش، التاريخ السياسي لشرق الأردن في العصر المملوكي، (عمان - ١٩٨٢)، ٥١.

(٧) شافع بن علي بن عباس، كتاب حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز بن الخويطر، (الرياض - ١٩٧٦)، ٧؛ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر، مؤسسة الاعظمي (بيروت - ١٢٩١هـ / ١٩٧١م)، ٣٧٢/٥.

(٨) شارك المماليك في الصراع الذي حصل بين الملك وأخيه الملك المعظم، للاستزادة، المقريزي، تقي الدين احمد بن علي، علي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٩٥٧م، ١ ق ٢ / ١٢٨.

(٩) تمكن عز الدين ايبك مقدم المماليك الكاملية من القبض على الملك العادل الثاني في مدينة بلبس وخلعه من السلطنة عام (٦٣٧هـ / ١٢٤٠م) للاستزادة، المقريزي، السلوك، ٢ ق ١ / ٢٩٥-٢٩٧.

عندها أدرك الملك الصالح نجم الدين أيوب ما لهذه الفرقة الفنية من قوة في حسم على الساحة الأيوبية آنذاك، كما يعود لها الفضل في وصوله للسلطنة في مصر وضم بلاد الشام لمملكه، رغم ما عاناه منها عندما كان ولياً للعهد، إذ كانت سبباً في عزله عن ولاية العهد آنذاك^(١).

ظهور اقطاي على الساحة الأيوبية :-

لم تذكر المصادر تفاصيل عن طفولته أو حياته كونه كان ينتقل من تاجر النحاس إلى الملك الصالح نجم الدين يوسف حيث نشأ وترقى في الأطباق ومنها مملوكا لدى الملك الصالح نجم الدين حيث ترقى في المناصب، وأول ما أشارت المصادر للأمير اقطاي عام ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م، عندما شارك في المؤامرة التي دبرها الملك الصالح نجم الدين أيوب في اغتيال أخيه العادل الثاني، أراد الملك الصالح نجم الدين أيوب أن يقتل أخاه العادل قال للطواشي محسن "اذهب إلى أخي العادل في الحبس، وخذ معك من الممالك من يخنقه، فعرض محسن على جماعة من الممالك من يخنقه، فعرض محسن على جماعة من الممالك وكلهم يمتنع إلا أربعة منهم فمضى بهم حتى خنقوا العادل^(٢).

ويضيف العيني^(٣) أن هؤلاء "سلطهم الله تعالى على ولده حتى قتلوه انحس قتلته وأقبحها ومثلوا به أعظم مثله كما فعل بأخيه" وهم بيرس البندقاري واقطاي^(٤).

بعد تنفيذ هذه العملية أصبح اقطاي من المقربين الملك الصالح نجم الدين أيوب وبدأ يترقى المناصب، رغم أن المصادر دائماً تحاول تسليط الضوء على الملوك الايوبيين أكثر من غيرهم، وتشير في بعض الأحيان لبعض رجالات الدولة أو أمراء الممالك هامشياً .

الأمير اقطاي وجهوده في الحملة الصليبية السابعة :-

سادت في أوروبا خلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي فكرة مفادها أن مصر تمثل رأس الحربة الصلدة التي تقف أمام أي حملة صليبية على المشرق الإسلامي، لذا لا بد من إنهاء قوة هذه السلطنة عن طريق احتلالها، لذا جهزت حملة عسكرية في خريف عام (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م)، بقيادة الملك لويس التاسع الذي أبحر من ميناء مرسيليا الفرنسي إلى جزيرة قبرص ومنها اتجهت إلى مصر وفي العشرين من صفر عام (٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) بدأ الإنزال الصليبي أمام دمياط التي كان الملك الصالح نجم الدين أيوب قد قام بتحصينها وتزويدها

(١) بدأ الملك الصالح نجم الدين أيوب شراء الممالك منذ عام ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م إلا أن زوجه والده الملك الكامل اتخذتها ذريعة بحجة تأمره على والده، فعزله عن ولاية العهد وأبعده عن مصر، المقريزي، السلوك، ٢ / ٢٤٤.

(٢) المقريزي، السلوك، ٢ / ٣٦٠ .

(٣) العيني، عقد الجمان، ٢٦ .

(٤) سبط ابن الجوزي، شمس الدين يوسف بن قراغلو، مرآة الزمان في تاريخ الأحيان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيد آباد، ١٩٥٢، ٨ / ٧٨٣ .

بالمقاتلة والذخائر وأقام عليها الأمير فخر الدين بن يوسف مع عرب كناته للدفاع عنها^(١). لكن الأمير فخر الدين ترك دمياط مع عرب كناته، مما دفع أهالي دمياط إلى تركها حيث سهل امتلاكها من قبل الصليبيين^(٢). مما أثار حفيظة الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي أمر بشنق عرب كنانة، كما وبخ الأمير فخر الدين لانسحابه من دمياط دون علم السلطان^(٣) أمام هذه التحديات التي واجهت الدولة الأيوبية توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب في ١٥ شعبان ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م^(٤)، في حين كانت القوات الصليبية تزحف باتجاه القاهرة، إذ قامت شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب بمهام الدولة والعمل على إخفاء موته حتى لا يؤثر على معنويات جيشه، كما قامت بإرسال الأمير اقتاي إلى حصن كيفا^(٥) لإحضار الملك تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب لاستلام السلطنة في مصر^(٦)، في حين استمر زحف القوات القوات الصليبية التي اصطدمت مقدمتها عند المنصورة بالفرقة المملوكية البحرية التي تولى قيادتها أثناء غياب الأمير اقتاي الأمير بيرس البندقاري، الذي أعمد كميناً أوقع فيه الصليبيين داخل مدينة المنصورة أدت إلى مقتل الأمير الكونت أرتو شقيق الملك لويس التاسع وعدد كبير من نبلائهم بعد أن اصطدموا بالمتاريس الخشبية والحجرية والطينية التي أعدها لهم أهالي المنصورة لعرقلة حركة فرسان الصليبيين من التحرك والمناورة، ومن نجا منهم قام نهر النيل بابتلاعه^(٧) وأثناء المعركة حضر الأمير اقتاي إلى المنصورة وعقد مجلس حرب عرض فيه معطف الكونت ارتو، ظنا منه بأنه معطف الملك لويس التاسع وقد استثمر هذا الفوز لشن هجوم جديد على الصليبيين أدى لتكبدهم خسائر فادحة^(٨). ثم بعدها قام الملك تورانشاه بقيادة الجيوش المصرية ومطاردة الصليبيين وإنزال هزيمة ساحقة بهم قرب مدينة فارسكو وقع فيها الملك لويس التاسع أسيراً^(٩) حيث اعتقل في مدينة المنصورة في دار القاضي فخر الدين إبراهيم بن لقمان^(١٠)، حيث دارت بعدها مفاوضات أدت للإفراج عن الملك لويس التاسع لقاء فدية كبيرة من المال مع الجلاء الصليبي عن مصر^(١١).

(١) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، تاريخ الواصلين في أخبار الخلفاء والملوك والسلاطين، مخطوطة مصورة عن النسخة الأصلية في دار الكتب (القومية بمصر) تحت رقم ١٠٠٤١ ح، ص ١١١١-١١١٢ المقريري، السلوك، ٢١/ ٣٣٦.

(٢) بيرس الداو دار، ركن الدين بن عبد الله المنصوري، مختار الأخبار، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، (القاهرة ١٤١٣هـ)، ٨.

(٣) ابن واصل، تاريخ الواصلين، ١١١٤-١١١٦.

(٤) بيرس المنصوري، مختار الأخبار، ٨.

(٥) حصن كيفا، بلدة تشرف على نهر دجلة بالقرب من الحدود العراقية، ياقوت الحموي، شهاب الدين ابن عبد الله الحموي، معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت (بيروت ١٣٧٥هـ)، ٢/ ٢٦٥.

(٦) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل، المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٠-١٩٦١ (١٨٠/٣).

(٧) ابن العميد، المكين جرجيس، أخبار الأيوبيين، المعهد الفرنسي، (دمشق ١٩٥٨م)، ١٥٩-١٦٠، سعيد، إبراهيم حسن، البحرية في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف (الاسكندرية - ١٩٨٣)، ٨٧.

(٨) ابن واصل، تاريخ الواصلين، ١١٤٤.

(٩) رنسيان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني، ط ٢، دار الثقافة، (بيروت-١٩٦٩)، ٣/ ٤٦٥-٤٦٦.

(١٠) أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسي، ترجم رجال القرنين السادس والسابع (المشهور بالذيل على الروضتين)، دار الجليل (بيروت - ١٩٧٤) ١٨٤؛ العيني، عقد الجمان، ٢٩-٣٠.

(١١) العيني، عقد الجمان، ٢٤.

اقطاعي ودوره في اغتيال الملك تورانشاه :-

أعقب الانتصار العظيم الذي أحرزه الملك تورانشاه على الصليبيين بمساندة ودعم الفرقة المملوكية البحرية الذين اثبتوا كفاءة عسكرية وقوة لا يستهان بها في ساحة المعركة هذه الفرقة وقائدها اقطاعي تتأمل رد الجميل وإغداق الأموال والاقطاعات لها ولامرائها، إلا ان المصادر تشير ان تورانشاه تنكر لهم وبدأ يعد العدة للانقضاض عليهم، وتتحمّل هذه المصادر بان تورانشاه عندما يشرب الخمر ويشمل يضع أمامه الشموع ويتناول سيفه ويضربها واحدة بعد الأخرى ويقول (هكذا افعل بالبحرية)^(١). كما انه كان يسمي كل امير منهم باسمه دون لقبه، كما كما تنكر لزوجة والده شجرة الدر وتوعدها بالسوء إذا لم تر شدة إلى ما ألت إليه أموال أبيه، مما أدى أثار حفيظة شجرة الدر لتتآمر مع ممالك والددة الفرقة البحرية وتحرضهم على قتله^(٢) بعد ان انقلب عليهم والعمل للتخلص منهم بدلا من إرضائهم وبجزل لهم العطاء ويمنيهم الوعود الحسنة كما كانوا على عهد أبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب^(٣). كما انه لم يوف بعهده مع الأمير اقطاعي بإعطائه أقطاع الإسكندرية^(٤). لكن تورا تمنشاه قام بتقريب ممالكه الذين قدموا معه من حصن كيفا، أدى إلى تأليب هذه القوى مجتمعة تحت أمرة الأمير اقطاعي الذين أراد تورانشاه التخلص منه بإرساله إلى الموصل واحتجازه من قبل الأمير بدر الدين لؤلؤ^(٥).

اقطاعي وقتل الملك تورانشاه :-

نجح الأمير اقطاعي في جمع القوى المعارضة والساخطة على الملك تورانشاه، حيث اتفق جماعة من ممالك أبيه على قتله عندما مد الملك تورانشاه (السماط في دهليزه يوم الاثنين ٢٧ محرم / ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م وجلس على طراحته واكل الناس بين يديه واكل معهم على ما جرت عادته، ثم فرغ الناس من الأكل وتفرقت الأمراء، ودخل تورانشاه إلى خيمة صغيرة له فدخل عليه ركن الدين بيرس البندقاري وضربه بالسيف تلقاها بيده فقطعت أصابعه، ثم إتهم البحرية بقتله وصعد إلى البرج فأحاطوا بالبرج وبدأ يستغيث بالناس، فلا مغيث، فاحرقوا البرج فهرب إلى نهر النيل حيث تلقاه فارس الدين اقطاعي وضربه بالسيف فقتله^(٦)، وبذكر المقرئزي^(٧) فقتله انه مات مات (جريحاً غريقاً محترقاً) وفي رواية أخرى اقطاعي هو الذي جسر على الملك تورانشاه بسهم وقتله^(٨).

اقطاعي ودوره في تولي السلطنة لشجرة الدر :-

- (١) المقرئزي، السلوك، ٣٥٨/٢/١ ؛ ابن تقي بردي، النجوم، ٣٧٠/٦ .
 (٢) المقرئزي، السلوك، ١٨٤ / ٢ / ١٨٤ ؛ العيني، عقد الجمان، ٢٩-٣٠ .
 (٣) العيني، عقد الجمان، ٢٤، الخويطر، عبد العزيز بن عبد الله، الملك الظاهر بيبرس، (الرياض - ١٣٩٦)، ص ٢٨.
 (٤) ابن تقي بردي، المنهل، ٥٠٣/٣ .
 (٥) ابن واصل، تاريخ الواصلين، ١١٦٥ .
 (٦) ابن واصل، تاريخ الواصلين، ١١٦٧ .
 (٧) السلوك، ٣٦٠/٢ .
 (٨) الداو داري، أبو بكر بن عبد الله بن ابيك، كنز الدرر وجامع الفرر، تحقيق اولرخ هارمان، القاهرة - ١٩٧١م، ٢٥/٨.

لم يكن اغتيال الملك تورانشاه حدثاً مفاجئاً، وإنما كما يبدو من سرد الأحداث التاريخية ان هناك مؤامرة كانت تحال خيوطها بدقة على مسرح الأحداث التاريخية، تتمثل أول خيوطها باستدعاء الوريث الشرعي للسلطنة الملك تورانشاه من حصن كيفا للتخلص منه وذلك بالاصطدام أول الأمر بالأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ^(١)، وإخبار الملك تورانشاه بأنه يسعى للملك كما أورد ذلك ابن واصل^(٢) للحدث بقوله ((ان تأخرت فات الأمر وتغلب الأمير فخر الدين على البلاد وربما جعلها باسم ابن عمل الملك المغيث)). وكانت همته تترقى إلى الملك كما انه اخذ في الاستبداد والاستقلال بالمملكة^(٣).

كما ينكر سبط ابن الجوزي^(٤) ان "بعض المماليك الواصلين إليه (أي تورانشاه) ان فخر الدين قد حلف العسكر لنفسه (أي للأمير فخر الدين) ومتى ما وصلت قتلت"، فضلاً عن ذلك ان الملك الصالح نجم الدين أيوب كان قد أوصى بعدم توليه ابنه الملك تورانشاه عقب وفاته، وتسليم مصر إلى الخليفة العباسي^(٥)، إلا ان شجرة الدر أهملت وصية زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب واستدعت الملك تورانشاه رغم المخاطر التي كانت تعترضه عن الطريق، وتاليه كما ذكرنا على الأمير فخر الدين فتخلص من احدهما ثم هي تزيح من يبقى وتتفرد بالسلطنة في مصر. لذا نرى ان الملك تورانشاه يتوعد الأمير فخر الدين وهو في طريقه إلى مصر^(٦)، لكن استشهاد الأمير فخر الدين في معركة المنصورة^(٧)، أزاح الأمير فخر الدين لتنفرد شجرة الدر والمماليك البحرية بالملك تورانشاه وتصفيته بحجج واهية كما أوردنا سابقاً.

شجرة الدر في عرش سلطنة مصر :-

أعقب اغتيال الملك تورانشاه، اجتماع الأمراء من المماليك البحرية عند الدهليز السلطاني (واتفقت كلمتهم على ان تكون شجرة الدر والددة خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين

(١) الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وهو الفضل يوسف بن الشيخ صدر الدين محمد بن عمر بن علي بن محمد بن حمويه الجويني، ولد بدمشق ونشأ في ظل الدولة الايوبية وسجنه الملك الصالح نجم الدين أيوب عام ١٢٢٤هـ/١٢٢٤م، ثم اطلق سراحه بعد ثلاث سنوات، وكان يعهد له بالامارة وقيادة الجيش، ببيرس الداودار، ركن الدين بن عبد الله المنصوري، مختار الأخبار، تحقيق دونالد - س - ريتشارد، الشركة المتحدة، بيروت - ١٤١٩م، ٨، عبد الحي بن احمد بن محمد ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة ١٣٥٠ / ٢٣٨-٢٣٩.

(٢) ابن واصل، تاريخ الواصلين، ١١٤٠؛ المقرئ، السلوك، ق ٣٣٥-٣٣٦.

(٣) ابن العميد، اخبار الايوبيين، ١٥٩؛ ابن ابيك الدوداري، كنز الدرر، ٣٧٥/٧.

(٤) مرآة الزمان، ٧٧٦/٢ق/٨.

(٥) ابو الفداء، المختصر، ١٨٠/٣، ابن الوردي، زين الدين عمر، تنمية المختصر في أخبار البشر، (المشهور بتاريخ ابن الوردي) المطبعة الحيدرية النجف - ١٩٦٩، ٢٦٤/٢.

(٦) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٧٧٦/٢ق/٨.

(٧) ابن واصل، تاريخ الواصلين، ١١٤٨.

ايوي هي القائمة بأمر السلطنة والملك^(١)، وكانت شجرة الدر جارية للخليفة العباسي المستعصم بالله قبل ان يشتريها الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكانت ارمنية، رغم ان قسم يذكر انها تركية^(٢)، اعتقها الملك الصالح نجم الدين أيوب ثم تزوجها وكانت ملازمة له بسفره وتراحاله، واكتسبت حنكة السياسية وإدارة الأمور عند مرض زوجها، كما انها اكتسبت حب واحترام ممالك زوجها الفرقة البحرية، فاستغلت خلو بيت الملك الصالح نجم الدين أيوب من وريث شرعي للسلطنة، وكونها أرملته واقرب الناس له جاء ترشيحها لتولي سلطنة مصر، وتعد أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك كما أوردها المقرئزي^(٣) ((وهذه المرأة شجرة الدر هي أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك)).

وتظاهرت شجرة الدر في حكمها باعتبارها ام ولد، كما انها نسبت نفسها إلى زوجها الراحل الملك نجم الدين أيوب والخليفة العباسي المستعصم بالله، ونقشت على العملية عبارة "المستعصمية الصالحية، ملكة المسلمين والددة السلطان خليل امير المؤمنين"^(٤) في ١٠ من صفر / ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م كان اعتلالها لسلطنة مصر، وقبضت أمور البلاد بيد من حديد بمساندة المماليك البحرية، وعرض منصب اتابك العسكر على الطواشي شهاب الدين رشيد الكبير فامتنع وعلى حسام الدين رشيد فامتنع كذلك^(٥).

ويبدو هذا الامتناع جاء لجملة من الأسباب أولها تفاديهم من سطوة وقوة المماليك البحرية التي كان أمراؤها في صراع حول هذا المنصب لاسيما الأميرين اقطاي وبيرس البندقداري من جهة، كما ان المعارضة الايوبية في بلاد الشام بدأت تلوح بالأفق، وإعلانها الحرب على شجرة الدر، فضلاً عن رفض الخليفة العباسي المستعصم بالله لتولي امرأة لسلطنة مصر.

ورد على طلب شجرة تعويضها بحكم مصر "ان كانت الرجال قد عدت عندكم أعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً"^(٦)، كما اصدر الشيخ عز الدين بن عبد السلام وهو من اجل قضاة مصر، ومن عظم رجالاتها من الناحية الدينية والفقهية، فتوى حول ما قد يبتلى به المسلمون من ولاية امرأة كما ان أهل مصر لم يحبذوا ان تتولاها امرأة، فعصفت بالبلاد الفتنة والفوضى ولاسيما في مدينة القاهرة^(٧).

اقطاي ومعارضته في توليه الامير المعز اتابكا^(٨) للعسكر:-

(١) المقرئزي، السلوك، ١/٢/٣٦١؛ دائرة المعارف، مادة شجرة الدر، م١٣، ١٧٥-١٧٦.

(٢) المقرئزي، السلوك، ق٢/٣٦١.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) المقرئزي، السلوك، ق٢/٣٦٢.

(٥) ابن واصل، تاريخ الواصلين، ١١٧٠، المقرئزي، السلوك ن ق٢/٣٦٢.

(٦) المقرئزي، السلوك، ق٢/٣٦٢، هامش ٢.

(٧) السيوطي، جلال الدين بن عبد الرحمن بن ابي بكر، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار احيار الكتب (القاهرة-١٣٨٧) ٢/٣٦٢.

(٨) الاتابك: لفظة تركية معناها ابو الأمراء أي اكبر الأمراء، وتطلق على المقدم على العساكر ويعد المنصب بعد نائب

السلطة؛ الفلقشندي، صبح، ٤/١٨.

لم يكن انتخاب اتابكا للعسكر أمراً هيناً بقدر ما شكل حرجاً لدى شجرة الدر ومناصريها من المماليك البحرية بعد رفض كا من حسام الدين محمد بن ابي علي الهذيانى^(١) والطواشي شهاب الدين رشيد^(٢) هذا المنصب ويبدو ان هذا الرفض مصدره الخوف من قوة وسطوة المماليك البحرية وأميرهم اقتاي الذي كان من اشد المنافسين له الأمير بيرس البندقداري الذي يطمح بهذا المنصب، لكن قتلها للملك تورانشاه وتطليخ ايديهما بدمه وكره الناس آنذاك لهم والخوف من استئثارهم بالحكم ازاحهم عن هذا المنصب. كما لم يكن انتخاب المماليك للامير المعز آيبك التركمانى كونه من الأمراء ذات المقام العالي او أقدرهم في الأمور العسكرية، ولا أقواهم شكيمة بل كان أوسطهم مرتبة ولم تكن الأضواء مسلطة عليه بقدر ما شأت الظروف ان يرتقى لهذا المنصب ، ومتى ما ارادوا خلعه لم يقف أحداً أمامهم، كما أشار بذلك اليونيني بقوله "متى أردنا صرفه أمكننا لعدم شوكته"^(٣) .

فجاء اختيار الأمير المعزايك توافقاً بين أمراء الفرقة البحرية كل ينشد بتحقيق ما يطمح إليه من مصالح.

التحديات وسبل مواجهتها :-

ان قيام دولة المماليك البحرية واعتلاء شجرة الدر للسلطنة فيها في ١٠ صفر / ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م تحديات داخلية وخارجية، الداخلية تمثلت بمعارضة رجالات مصر وفقهائها وأهلها، فضلاً عن رفض الخلافة الاعتراف بشرعية حكمها.

أما التحديات الخارجية فتمثلت بتوحيد البيت الايوبي في بلاد الشام والكرك، بعد رفض الأمير جمال الدين يوسف بن يغمور نائب السلطنة في دمشق والأمراء القيمرية^(٤) لسلطنة شجرة شجرة الدر حيث أرسلوا إلى الملك ناصر يوسف الثاني صاحب حلب بالقدوم إلى دمشق وتسليمها له، فقدم الملك الناصر يوسف الثاني ودخل دمشق عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م دون قتال^(٥). كما اخرج الطواشي بدر الدين الصوابي نائب الكرك^(٦) والشوبك^(١) الملك المغيث عمر

(١) حسام الدين محمد بن ابي علي الهذيانى هو الحسن بن محمد توفي، ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن احمد بن محمد، شذرات في اخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر (القاهرة - ١٣٥٠هـ)، ٢٩٦/٥.

(٢) الطواشي، معناها الجندي، شافع بن علي، ٣٢هـ .

(٣) اليونيني، موسى بن محمد بن احمد، ذيل مرآة الزمان، مطبعة دائرة المعارف الإسلامية (حيدر اباد- ١٩٥٤)، ٢٥٥/٢ العين، عقد الجمان، ٣٤

(٤) القيمرية، نسبة الى قيصر وهي قلعة في الجبال بين الموصل و خلاط وكان أهلها من الأكراد، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢١٨/٤.

(٥) فتحت أبواب دمشق للملك الناصر يوسف الثاني دون قتال، العيني، عقد الجمان، ٣٣ .

(٦) الكرك: قلعة حصينة في المراق بلاد الشام، ينظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٤٥٣/٤ .

عمر بن الملك العادل بن الملك الكامل من سجنه حيث كان معتقلاً بالشوبك وسلم إليه الكرك والشوبك أمام التحديات حاول المماليك احتواءها عن طريق إقامة احد الأمراء الأيوبيين الصغار في السلطنة، ووقع اختيارهم على الأمير مظفر الدين موسى بن الملك المسعود بن الكامل، وأقاموه سلطاناً ولم يتجاوز العاشرة من عمره ولقبوه بالملك الاشرف ويكون المعز اتابكا له^(٢).

كما أعلن المماليك في مصر ان البلاد تحت سلطة الخلافة العباسية وان الملك المعز آيبك نائب الخليفة المستعصم بالله^(٣).

كما تحرك الملك السعيد بن الملك العزيز بن العادل على قلعة الصبية^(٤) واستولى عليها، ثم توجه إلى السائح^(٥) وبايع الملك المغيث عمر صاحب الكرك، كما أُنقذ عدد من أمراء المماليك على إقامة الملك المغيث عمر صاحب الكرك سلطاناً على البلاد وخطبوا بالصالحية^(٦). كما ان الملك الناصر يوسف الثاني بدأ بتخشيد العساكر للتحرك تجاه مصر عام ٦٤٩هـ / ١٢٥٠م، أما هذه التحركات التي أخذت تصل إخبارها إلى مصر حتى قام الأمير ركن الدين خاص مقدم العساكر في غزة بالهروب إلى السائح وبايع الملك المغيث عمر صاحب الكرك^(٧).

أهم الإجراءات المملوكية تجاه التحركات الأيوبية :-

- (١) إطلاق سراح ولديّ الملك الصالح للإيقاع بين أنصار الملك الناصر يوسف الثاني، وإظهار ان اباهم مباطن للماليك وقصدوا بهذه العملية محاولة تفكيك البيت الايوبي وإضعافه^(٨).
- (٢) أشيع في القاهرة انتظام الصلح بين الأمير المعز آيبك والملك المغيث عمر صاحب الكرك^(٩).

(١) ابن آيبك الداوداري، كنز الدرر، ١٣/٨.

(٢) ابن عبد الظاهر، محي الدين أبو الفضل عبد الله رشيد الدين بن صفوان المصري، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، (الرياض ١٣٩٦/١٩٧٦)، ٥٢.

(٣) ابو الفداء، مختصر، ١٩٢/٣؛ المقرئزي، السلوك، ق٢/٣٧٠.

(٤) الصبية: اسم القلعة بانياس في الشام، ابو الفداء، تقويم البلدان، ٢٤٨.

(٥) السائح: قرية بالصعيد في مصر؛ الكثبي، محمد بن شاكر، عيون التواريخ، تحقيق فيصل السامر، ونبيلة عبد المنعم داود، دار الرشيد، بغداد - ١٩٨٠، ٧٦/٢٠.

(٦) الصالحية: قرية مصرية تقع على حدود مصر من جهة الشام، القلقشندي، صبح، ٣٧٧/١٤.

(٧) ركن الدين ترك بن عبد الله الصالحي، توفي عام ٦٨٤هـ/١٢٧٥م، ابن تغري بردي، نجوم، ٢٤٧/٧.

(٨) العيني، عقد الجمان، ٤٠.

(٩) المقرئزي، السلوك، ق٢/٣٧٢.

(٣) امر الملك المعز ايبك بهدم سور دمياط، كما أطلق سراح بعض الأسرى الصليبيين لمنع أي تحالف محتمل بين الملك الناصر يوسف الثاني ولويس التاسع ملك فرنسا المقيم في عكا، حيث كان يراقب الأوضاع عن كثب^(١).

(٤) أرسل الأمير فارس الدين اقتاي إلى الصالحية لاستعادتها بعد خروج بعض أمرائها ومراسلتهم للملك المغيث عمر، ومنع الملك الناصر يوسف الثاني من السيطرة عليها^(٢).

(٥) بدأ الأمير المعز ايبك بتوحيد صفوف المماليك وتحشيد قواهم للتصدي للملك الناصر يوسف الثاني، ومما يلاحظ من خلال دراسة تاريخ المماليك البحرية عند شعورهم بأي خطر محدقاً بهم ويهدد كيانهم ووجودهم، يبدأ ويترك خلافاتهم ويتحدوا أمام الخطر المحدق بهم ويقفون صفاً واحداً تجاه أي خطر؛ لكن سرعان ما يعودوا إلى التآمر على بعضهم الآخر بعد زوال الخطر، كما حدث في معركة العباسية عندما تخلى ممالك الملك الناصر يوسف الثاني، وانظموا إلى ممالك مصر وقلبوا موازين المعركة، وكذلك في عهد الملك قطز تصالح الملك المظفر قطز مع الأمير بيرس البندقاري وتصدوا للمغول في معركة عين جالوت، ولكن بعد انتهاء المعركة انقلبوا ضده وقتلوه أثناء عودتهم إلى مصر.

معركة العباسية :-

بعد ان أكمل الأمير المعز ايبك استعداداته العسكرية تحرك بقواته من القاهرة ليتلقى بالأمير اقتاي عند الصالحية بعدها تحركا باتجاه مدينة العباسية، وفي العاشر من ذي القعدة ٦٤٩هـ / ١٢٥٠م اصطدمت القوات المملوكية بقوات الملك الناصر يوسف الثاني في معركة ظهرت بواورها بانتصار عساكر الملك الناصر يوسف الثاني^(٣) وهروب عساكر الأمير المعز ايبك، لكن انضمام المماليك العززية (نسبة للملك العزيز والد الملك الناصر يوسف الثاني) إلى العساكر المملوكية قلب موازين القوى وأدت إلى هروب العساكر الشامية وفي مقدمتهم الملك الناصر يوسف الثامن باتجاه الشام^(٤).

وهذا النجاح في هذه المعركة استثمره الأمير المعز ايبك بإرسال الأمير اقتاي الذي استولى على الساحل ونابلس إلى نهر الشريعة (نهر الأردن)، مما أثار حفيظة الملك الناصر يوسف الثاني بإرسال حملة أخرى لصد القوات المملوكية واستعادة ما استولت عليه في بلاد الشام ومن ثم الاستيلاء على مصر بقيادة الملك الأمجد العادل، وما وصل الخبر إلى مصر حتى خرج الأمير المعز ايبك بالمماليك البحرية وعسكر في مدينة الصالحية للتصدي للقوات الشامية التي أقامت في غزة^(٥)، احدهما تراقب الأخرى من عام ٦٤٩هـ / ١٢٥١م حتى عام

(١) نسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ٤٧٥/٣ .

(٢) المقرزي، السلوك، ق ٢ / ٣٧٢ .

(٣) ابن آيبك الداوداري، كنز الدرر، ١٦/٨ ؛ المقرزي، السلوك، ق ٢ / ٣٧٤ .

(٤) العيني، عقد الجمان، ٥١ .

(٥) المصدر نفسه، ٥١، ٥٢ .

٦٥١هـ / ١٢٥٣م، عندها تدخلت الخلافة العباسية عندما أرسل الخليفة العباسي المستعصم بالله ورسوله نجم الدين بن محمد البادراني، الذي نجح في عقد الصلح بينهم على أن يكون للملك الناصر يوسف الثاني ما تبقى من بلاد الشام (أي عند حدود ونهر الشريعة)، ويتعهد بإطلاق سراح الأسرى لديه الأمير^(١) المغرّاب وتعد هذه المعاهدة اعتراف شرعي للمالِك في حكم مصر.

ثورة عرب صعيد مصر :-

قاد هذه الثورة الشريف حصن الدين ثعلب بن الأمير الكبير نجم الدين بن الأمير الشريف فخر الدين^(٢)، كان من الأشراف الأغنياء ومقره مدينة ديروط أو دهروط، ويطلق عليها ديروط الشريف، حيث أقام إمارة عربية مستقلة في مصر الوسطى في المنطقة الشرقية بالوجه البحري، وكانت قاعدة هذه الإمارة بنواحي الفيوم في بلدة تعرف بذروة سريام أو ذروة الشريف نسبة للشريف حصن وتقع بين النيل وترعه المنهى التي هي الآن بحر يوسف^(٣).

ويرجع تحرك إعراب مصر إلى عهده الملك الصالح نجم الدين أيوب حيث يشير النويري^(٤) "كان من خبر العريان بالصعيد، أنه لما اشتغل الملك الصالح نجم الدين أيوب وعساكره بقتال الفرنج بالمنصورة، ... ومقتل ولده الملك المعظم واشتغال الملك المعز الملك الناصر وتجريد الجيوش إلى جهته، تمكن العريان بهذه الأسباب من البلاد).

واجتمع أهل الصعيد حول الشريف حصن الدين وأطاعوه وانقادوا له حتى رادوا على اثني عشر ألف فارس وستين ألف راجل^(٥).

ويمكن تخلص أهم أسباب ثورة عرب مصر :-

- (١) استغلال الظروف التي مرت بها الدولة الأيوبية من حروب داخلية وخارجية كما أوردنا منذ عهد الملك الصالح أيوب نجم الدين وابنه تورانشاه^(٦).
- (٢) تعسف أمراء المماليك بعد معركة المنصورة وقتلهم لتورانشاه واستبدادهم بالسلطنة رغم مساهمة أهل صعيد مصر في التصدي للصليبيين^(٧).
- (٣) استغلال أمراء المماليك لعرب صعيد مصر لمنتوجاتهم الزراعية واحتكارها ومن ثم التلاعب بأسعارها، مما أثار حفيظة أهل الصعيد كونهم يمثلون طبقة الفلاحين آنذاك.

(١) البيهقي، ذيل مرآة الزمان، ٥٧٨ .

(٢) هو حصن الدين بن الدين بن فخر الدين إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، المقرئ، السلوك، ٣٨٦/٢ .

(٣) نويري، نهاية الأدب، ٤٢٧/٢٩ .

(٤) المصدر نفسه والصفحة.

(٥) المصدر نفسه، ٤٢٧/٢٩-٤٢٨ .

(٦) السيد، محمود، تاريخ عرب الشام في العصر المملوكي، (الإسكندرية، ١٩٩٧)، ١٢٨ .

(٧) المقرئ، السلوك، ٣٨٦/٢ ، ٣٧٨ .

(٤) فرضوا الضرائب الباهظة واضطهدوا الناس وبالغوا في الفساد^(١).

اقتاي ودوره في إخماد ثورة إعراب مصر :-

بدأت ثورة عرب مصر تأخذ اتجاهاً جديداً عندما حاول الشريف حصن الدين استقلال الخلاف بين المماليك في مصر والملك الناصر يوسف الثاني بمراسلة الأخير وإيجاد نوع من التحالف العسكري ومساندة ثورته^(٢)، لكن مراسلته هذه جاءت متأخرة لتوقيع معاهدة الصلح بين الأمير المعزيبك والملك الناصر يوسف الثاني بمباركة من الخلافة العباسية في بغداد، ولكن هذا لا يمنع من القول ان عرب صعيد مصر قد تهيؤوا وحشدوا قواهم للتصدي للحملة العسكرية التي قادها الأمير اقتاي والتي كانت تبلغ تعدادها خمسة آلاف مقاتل^(٣) اتجهت إلى ناحية ذروة^(٤)، ذروة^(٤)، فتصدى لها الأمير حصن الدين بعساكره ودارت معركة وصفها المقرئزي^(٥) بقوله (فاقتتل الفريقان من بكرة النهار إلى الظهر، فقدّر الله ان الأمير حصن الدين تقنطر (سقط) عن فرسه، فأحاط به أصحاب واتت الأتراك إليه فقتل حوله من العرب والعبيد أربعمائة رجل حتى اركبوه فوجد العرب قد تفرقوا عنه فولى منهزماً)، اتجه بعدها الأمير اقتاي إلى عرب الغربية والمنوفية من قبيلتي سنيس ولواته وكانوا قد تجمعوا في ناحية سخا وسنهو فاصطدم بهم اقتاي وانزل بهم هزيمة تفرقت على أثرها عرب صعيد مصر وأصبحت أموالهم وعيالهم سبايا للمماليك^(٦). أما الشريف حصن الدين فانه هرب من ارض المعركة، وبعث بعدها يطلب من الامير المعز آيبك الامان فامنه ووعد باقطاعات له ولأصحابه، فانخدع الشريف حصن الدين ووقع في شرك الأمير المعز آيبك فقبض عليه ومعه ألفان وستمئة فارس من أتباعه، حيث نصبت الأخشاب (المشانق) من بلبيس إلى القاهرة وشنق الجميع باستثناء الشريف حصن الدين الذي أرسل إلى الإسكندرية حيث سجن هناك ثم قتل عام ٦٥١هـ / ١٢٥٣م^(٧).

من خلال سرد الأحداث التاريخية وما أورده المؤرخون^(٨) حول الثورة عن روايات مختلفة مختلفة تحاول إلقاء اللوم على الشريف حصن الدين وعربه من صعيد مصر وتصفهم بانهم سراق وقاطعوا الطرق، وكثر شرهم وزاد طغيانهم، وقطعوا طرق التجارة، وان ما حل بهم من توسيط وتسحير ونشر الأجسام وسلخ الجلود ودفن الأحياء وتعليق رؤوس القتلى في رقاب

(١) سالم عبد العزيز، تاريخ الايوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة، (الإسكندرية ب ١٩٩٧)، ٢١١-٢١٢ .

(٢) المقرئزي، السلوك، ق١ / ٣٨٦-٣٨٧ .

(٣) المقرئزي، السلوك، ق٢ / ٣٨٦-٣٨٧ .

(٤) ذروة : قرية في المرتاحية من قسم نوسة الفيظ، المقرئزي، السلوك ق١ / ٢ / ٣٨٧هـ .

(٥) المصدر نفسه والصفحة.

(٦) المصدر نفسه والصفحة.

(٧) المقرئزي، السلوك، ق١ / ٢ / ٣٨٨ .

(٨) النويري، نهاية الاداب، ٢٩/٤٢٧-٤٢٨ ؛ المقرئزي، السلوك، ق١ / ٢ / ٣٨٦، ابن خلدون، العبر، ج٥، ٣٧٥، العيني، العيني، عقد الجمال، ٧ .

نسائهم من فظائع تشبب لها الولدان، كما أوردت هذه المصادر ان عرب مصر رفعوا شعارا "نحن أصحاب البلاد بأننا أحق بالملك من المماليك وقد كفى اننا خدمنا بني ايوب وهم خوارج خرجوا على البلاد، وانفوا من خدمة الترك، وقالوا انما هم عبيد للخوارج .."^(١). وتتغافل هذه المصادر ان هؤلاء العربان كما تصفهم بان مساهماتهم بإرفاء المقاتلة أثناء الحروب الصليبية، كما انهم كانوا يمثلون ركنا أساسياً في الجانب الاقتصادي لقيامهم فضلا عن ارفاد المقاتلة، عملهم في الزراعة ودفع الخراج والضرائب للدولة، وانهم سكان البلاد الأصليين يكونوا ارقاء لعبيدهم، لابد من التصدي ووقف الاستغلال لهم وإنصافهم بان ثورتهم كانت تمثل ثورة الظلم والطغيان والفساد والاستعباد وهذه المصادر تمثل آراء كتابها الذين لا يهتمهم سوى إرضاء أسيادهم من المماليك أما لطمعهم بهداياهم وأعطياتهم او خوفا من سيوفهم وبطشهم ولكن للحقيقة لابد ان تتجلي والحقائق ان تذكر.

اقطاي وتعاضم نفوذه :-

من خلال استقراءنا للأحداث التاريخية على ضوء ما تناقلته المصادر المملوكية التي حاولت تبرير اغتيال الأمير اقطاي بحجج واهية مرة فساد وأخرى طفياته واستبداده في حين تصف الملك المعز آيبك بالضحية والذي لا حول له ولا قوة دون التطرق للأسباب الحقيقية المتمثلة بالوضع الذي آلت إليه الدولة المملوكية والاستقرار الحاصل بعد القضاء على الأخطار التي كانت محدقة بها من التهديد الايوبي وثورة صعيد مصر، واكتسابها الشرعية من قبل الخلافة العباسية، فلا بد من من قوة واحدة تسيطر على الساحة والمتمثل بالملك المعز كما سنرى لاحقا لذا تحاول المصادر او لا تصف اقطاي، بان نفسه قد سمت وعلت مرتبته وكثر أتباعه، وكثر حرسه وانه (إذا ركب من داره إلى القلعة ومن القلعة إلى داره يقتل جماعة بأمره وبين يديه، ولا يلتفت من المعز آيبك ولا غيره)^(٢). أما العيني فيوصف الأمير اقطاي^(٣) بانه "سمت نفس الامير فارس الدين وعلت مرتبته وكثر أتباعه وكثر حرسه الخاص لا بل بدأ بالتطاول على الملك المعز آيبك بحيث ان اتباعه يطلقون عليه الملك الجواد ويسمي الملك المعز آيبك باسمه"، فضلاً ان اقطاي طلب اقطاع الاسكندرية كما ذلك النويري^(٤) فامنت أطماعه إلى صلب ثغر الاسكندرية اقطاعاً، فلم يتمكن الملك المعز مخالفته لقوة شوكته، وتطاول البحرية " كما انه بدأ يتصرف في بيت المال^(٥). وكانت الخزازين بين يديه^(٦).

(١) العيني، عقد الجمان، ١٠٨ .

(٢) ابن ايبك، كنز الدرر، ٢٤/٨-٢٥ .

(٣) العيني، عقد الجمان، ٨٠ .

(٤) النويري، نهاية الادب، ٤٣٠/٢٩ .

(٥) سيط بن الجوزي، مراة الزمان، ٢ق٨ / ٧٩٢-٧٩٣ ابن ايبك الداو داري، كنز الدرر، ٢٥/٨ .

(٦) المصدر نفسه والصفحة.

"وكان لا يرد للامير اقطاعي مرسوم والملك المعز باسم الملك لا غير^(١). وصار ليس له مع البحرية امر ولا نهى ولا جل ولا عقد ولا يسمع احد منهم قولاً، فان رسم لأحد بشيء لا يمكن من إعطائه واجتمع الكل على باب الامير فارس الدين اقطاعي وقد استولى على الامور كلها"^(٢).

ولم تكتف هذه المصادر بهذه التهم بل يذكر النويري^(٣) " .. واتصل بالملك المعز انهم يدبرون عليه وانهم قد عزموا على الوثوب عليه، فبادر عند ذلك بالتدبير والاحتياط". أما ما ذكرت عن فرقهته البحرية، فانهم قد تمادوا في طغيانهم وظلمهم للناس حتى ان المقرئ^(٤) يورد الصليبيين لو ملكوا بلاد مصر لما قاموا بهذه الأعمال، "ونزل بالناس من البحرية بلاد مصر ما زادوا في الفساد على قلعة البحرية" كما يشير بذلك بن ابيك الداوداري، "وكانوا قد ساروا في القاهرة ومصر ابخس سيرة من العسف بالناس والجور، واخذ أموال الرعية واخذ نسائهم وأولادهم بأيديهم من الطرقات، ويهجمون بالحمامات على الناس ويأخذوهم عرايا ومن الاخراج، ولا يجد احد يأخذ بيد احد"^(٥).

لكن عند استقراءنا للحقيقة التاريخية لابد نعود للخطوط الأولى التي بدأ فيها العداء الخفي بين الامير اقطاعي والملك المعز آبيك، تبدأ عند ترشيح الملك المعز كاتابك للعسكر كان أول المعارضين له الأمير اقطاعي الذي كان يطمح للاتباعه لكن معارضة الامير بيرس البندقداري من الأمراء افشل طموحات اقطاعي، وتستمر معارضة اقطاعي عند صعود الملك المعز آبيك للسلطنة فيعمل على إيجاد منافس له بل تذكر بعض المصادر تنازله عن السلطنة للطفل الايوبي الملك مظفر الدين موسى ويكون الملك المعز آبيك اتابكا له^(٦). كما حاول التخلص منه منه بإرسال الأمير اقطاعي لإخماد ثورة عرب مصر، لكن النهاية زادت من نفوذه وقوة فرقته البحرية لذا بدأ الملك المعز باتخاذ عدة تدابير للحد من نفوذ الفرقة البحرية وأميرها اقطاعي تمثلت:-

(١) انشأ فرقة من المماليك عرفوا بالفرقة المعزية نسبة إلى الملك المعز^(٧).

(٢) عين مملوكه الامير قطز المعزي نائباً للسلطنة في مصر^(٨).

(١) المصدر نفسه والصفحة.

(٢) العيني، عقد الجمان، ٨٠ .

(٣) النويري، نهاية الأدب، ٣٤٠/٢٩ .

(٤) المقرئ، الخطط، ٢٣٧/٢ .

(٥) كنز الدرر، ٢٥/٨ .

(٦) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٨ق٢ / ٧٩٢-٧٩٣ ، ابن ابيك الداوداري، كنز الدرر، ٢٥/٨ ؛ ابن عبد الظاهر،

الروض الزهراء، ٥٢ .

(٧) ابن اياس، بدائع الزهور، ٧٤/١ .

(٨) العيني، عقد الجمان، ٧٩ .

٣) أخرج المماليك البحرية من جزيرة الروضة، كما عزل الملك مظفر الدين موسى وانفرد بالسلطنة ^(١).

كما استشار منافسة اللود الملك الناصر يوسف الثاني حول التخلص من الأمير اقطاي وإمكانية دعمه في ذلك، لكنه لم يتلق الجواب ^(٢) كما اطلع زوجته شجر ووزيره للتخلص من الأمير اقطاي ونفوذ الفرقة البحرية لاسيما شجرة الدر كان لها مكانة كبيرة عند أمراء الفرقة البحرية قد تتجح في تحييد كثير من هذه القوة ان لم تقف بجانبها ^(٣).

أمام هذه الخطوات المدروسة استغل الملك المعز خطبة الأمير اقطاع لابنة صاحب حماه بنت الاملك المظفر نقي الدين محمود وطلب من الملك المعز آيبك ان تقيم في القلعة كونها من بنات الملوك، وهذا يعطيه شرعية الوصول للسلطنة عن طريق البيت الايوبي ^(٤). مما أثار حفيظة الملك المعز آيبك حيث سيكون غريمه مشاركاً له في السكن في القلعة وقريباً في السلطنة كما أوردها ابن تغرى بردى، ^(٥) وأما الملك المعز فانه لما أبطأ عليه جواب الملك ناصر ناصر صلاح الدين في امر اقطاي، وتحقق ان بنت صاحب حماه في الطريق بقى متجراً ان منعه من سكن القلعة حصلت المباينة الكلية، وان سكت قويت أسبابه بها ولا يعود يمكن من إخراجها ويترتب على ذلك استقلال الأمير فارس الدين اقطاي فعمل على عاجلته.

المؤامرة والاغتيال :-

بعد ان أكمل الملك المعز آيبك استعداداته للتخلص من الأمير اقطاي، اختلفت المصادر حول كيفية قتله:-

تشير الرواية الأولى التي ذكرها ابن ايبك الداوداري والنويري ^(٦).

ان الامير اقطاي قد ركب إلى قلعة الجبل واجتمع بالملك المعز آيبك وطلب منه ان ينعم على بعض البحرية بمال، فاعتذر الملك المعز ان الخزائن قد خلت من الأموال، وطلب منه الصبر، فإذا وصل شيء من المال خذه، فقال الامير اقطاي "لا أسير وانت تبخل علينا بمال حصلته سيوفنا" وأغلظ للمعز في الكلام، فقال له المعز "إذا انقضت الخدمة اطلع الظهر وادخل أنا وانت إلى الخزانة لترى بعينيك، وافعل ما تختار" ثم ان المعز رتب له في دهليز الخزانة مماليكاً، وطلع بعد الظهر، وقام معه المعز، وتقدم الفارس أمامه إلى عطفه الدهليز من وجهة الدور. وانما فعل المعز ذلك لان الوصول إلى الخزانة من الدور خرج (ضيق) الملك ويمر المار

(١) المقريزي، السلوك، ٢/٣٨١، ٣٨٤٧.

(٢) ابن تغري بردى، النجوم، ١١/٧.

(٣) ابن ايبك الداوداري، كنز الدرر، ٢٥/٨.

(٤) العبادي، قيام دولة المماليك، ١٣٣-١٣٤.

(٥) النجوم، ١١/٧.

(٦) ابن ايبك الداوداري، كنز الدرر، ٢٦/٨؛ النويري، نهاية الارب، ٤٣١/٢٩.

على بعض قاعات الحريم، فلا يمكن استصحاب الكثير من المماليك، وكان الملك المعز قد كمن في عطفه من عطفات الدهاليز مملوكه الأمير سيف الدين قطز ومعه عشرة من المماليك المعزية ..، فلما وصلوا إلى ذلك المكان تأخر السلطان واسترسل الأمير فارس الدين وتقدم إلى المكان فوثبوا عليه وقتلوه قال: وأمر الملك المعز بغلق قلعة الجبل".

أما المقرئ^(١) فيذكر ان للملك المعز آيبك استدعى الأمير اقطاعي وقت القائلة (الظهر) من يوم الأربعاء، ثالث من شعبان عام ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م "ليحظر إليه بقلعة الجبل في مشور يأخذ رأييه فيه، فركب اقطاعي على غير أهبة ولا اكتراث فعند ما دخل من باب القلعة وصار في قاعة العواميد أغلق باب القلعة ومنع مماليكه من العبور معه، فخرج عليه جماعة بالدهليز قد اعدوا لقتله وهم قطز وبهار وسجر الغنمي فهربوه بالسيوف حتى مات".

فلما بلغ الخبر أصحابه من الفرقة البحرية نحو السبعمئة فارس ووقفوا تحت القلعة وفي ظنهم انه لم يقتل، فلم يشعروا إلا ورأس اقطاعي قد رمى بها المعز إليهم، ففرقوا وخرجوا بالليل وحرقوا باب القواطين، فمنهم من قصد المغيث عمر صاحب الكرك ومنهم من ساروا إلى الملك الناصر يوسف الثاني^(٢).

مما يستدل من الروايتين ان هناك خطة قد أعدت بإحكام وهياً لها من زمن طويل، بعد ان استدرج إلى القلعة وأغلقت أبوابها ثم انفرد الملك المعز بالأمير اقطاعي لينهي اكبر خطر كان يحرق بسلطنته وينفرد بحكم مصر آنذاك.

(١) المقرئ، السلوك، ق ٣٩٠/٢.

(٢) المصدر نفسه، ق ٣٩١/٢.

المخطوطات والمراجع والمصادر

أ) المخطوطات

(١) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م) تاريخ الواصلين في اخبار الخلفاء والملوك والسلطين مخطوطة مصورة عن النسخة الأصلية في دار الكتب القومية مصر - تحت رقم ١٠٠٤١ ح، موجودة في مكتبة در علي نجم عيسى.

ب) المرجع الرئيسية :-

(١) ابن اياس، محمد بن احمد (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطبق بولاق ١٣١١هـ .

(٢) بيرس الداودار، ركن الدين بن عبد الله المنصوري (٧٢٥هـ / ١٣٢٤م) - زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالد س. ريتشاردز، الشركة المتحدة، بيروت ١٤١٩هـ

- مختار الأخبار، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية القاهرة ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

(٣) ابن تغري بردي، جمال الدين ابو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، مطابع كوستا توماس، د . ت. - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ح ٣ تحقيق نبيل محمد، القاهرة ١٩٨٦. (٤) الخزرجي، علي بن حسن، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية (القاهرة - ١٣٢٩هـ / ١٩١١م).

(٥) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م). العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (المشهور بتاريخ ابن خلدون)، مؤسسة الاعلمي (١٢٩١هـ / ١٩٧١م).

(٦) الداوداري، ابو بكر بن عبد الله بن آيبك (ت ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م). كنز الدر وجامع الفرر، ح ٧ المشهور بالدر المطلوب في أخبار بني أيوب تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة - ٩٧٢. - كنز الدرر وجامع الفرر ح ٨ (الدر الزكية في أخبار الدولة التركية) تحقيق اولرخ هارما، القاهرة - ١٩٧١م.

(٧) سبط ابن الجوزي، شمس الدين يوسف بن قزاوغلو (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م). مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية (حيدر آباد - ١٩٥٢م).

(٨) السيوطي، جلال الدين بن عبد الرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م.

- ٩) شافع بن علي بن عباس، (ت ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م).
كتاب حسن المنقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية تحقيق عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، الرياض - ١٩٧٦ م.
- ١٠) أبو شامة، شهاب ابو محمد بن عبد الرحمن المقدسي (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م).
تراجم رجال القرنين السادس والسابع (المشهور بالذيل على الروضتين) ط ٢ - دار الجبل، بيروت ١٩٧٤م.
- ١١) ابن عبد الظاهر، محي الدين أبو الفضل عبد الله رشيد بن صفوان المصري، (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٣م).
الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر الرياض - ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.
- ١٢) ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن احمد بن محمد (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م) شذرات الذهب في اخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر، القاهرة - ١٣٥٠ هـ.
- ١٣) ابن العميد، المكين جرجيس، (٦٧٢هـ / ١٢٧٣م).
اخبار الأيوبيين، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٥٨ م.
- ١٤) العيني، بدر الدين محمود (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م).
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد امين الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة - ١٤١٧هـ / ١٩٨٧ م.
- ١٥) ابو الغداء، عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) المختصر في اخبار البشر، دار الكتاب اللبناني (بيروت - ١٩٦٠ - ١٩٦١م).
- ١٦) القلقشندي، ابو العباس احمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤٣١م).
صبح الاعشى في صناعة الانشاء، مطبعة كوستا توماس، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة، القاهرة - ١٩٦٣ م.
- ١٧) الكشي، محمد بن شاکر (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م).
عيون التواريخ، تحقيق فيصل السامر، ونبيلة عبد المنعم داؤد، دار الرشيد بغداد - ١٩٨٠م.
- ١٨) المقرئ، تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م).
السلوك لمعرفة دول الملوك، تصحيح محمد مصطفى زيادة،
- مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة - ١٩٥٧ م .
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المشهور بالخطط المقرئية مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة . د.ت .

- ١٩) النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) نهاية الأدب في فنون الأدب، ح ٢٩، تحقيق محمد ضياء الدين الرئيس الهيئة المصرية، القاهرة-١٩٩٣م.
- ٢٠) ابن الوردي، زين الدين عمر (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م).
تتمة المختصر في اخبار البشر (المشهور بتاريخ ابن الوردي) المطبعة الحيدرية النجف، ١٩٦٩.
- ٢١) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م).
معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت، بيروت - ١٣٧٥م.
- ٢٢) اليونيني، موسى بن محمد بن احمد (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م).
ذيل مرآة الزمان، مطبعة دائرة المعارف الإسلامية، حيدر آباد - ١٩٥٤م.

المراجع الثانوية :-

- ١) الخويطر، عبد العزيز بن عبد الله، الملك الظاهر بيبرس، الرياض - ١٣٩٦م.
- ٢) سالم، عبد العزيز، سحر عبد العزيز، تاريخ الايوبيين والمماليك، مؤسسة ثبات الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧م.
- ٣) سعيد، إبراهيم حسن، البحرية في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، الإسكندرية - ١٩٨٣م.
- ٤) السيد، محمود، تاريخ عرب الشام في العصر المملوكي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية - ١٩٩٧م.
- ٥) العبادي، احمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت - ١٩٦٩.
- ٦) غوانمه، يوسف درويش، التاريخ السياسي لشرق الأردن في العصر المملوكي عمان - ١٩٨٢.

الكتب المعربة :-

- ١) رانسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني ط ٢، دار الثقافة، بيروت - ١٩٦٩م.
- ٢) مقالات معربة عن دائرة المعارف الإسلامية:
سوبر نهايم، مادة شجر الدر، م ١٣.